# ٦٢ ابن عطاء الله السكندرى
## صاحب الحكم والأقوال المأثورة

الحديث هذه المرة عن قطب من أقطاب الصوفية. أتقن إلى جانب علوم الباطن - التى هى من صميم التصوف - علوم الظاهر من شريعة وفقه، ومع الاثنين كان له اهتمامات أدبية واضحة يستطيع أن يلمحها القارئ لكتاباته من مجرد الصياغة الأدبية الرفيعة المستوى. وهذه الخصائص أهلته جميعها لأن يحتل عموداً من أعمدة الأزهر الشريف، وأن يكون له تلاميذ ومريدون ليس على مستوى مصر وحدها، أو العالم العربى فحسب، وإنما على مستوى العالم الإسلامى كله.. ذلك هو العالم الصوفى الجليل ابن عطاء الله السكندرى.

هذا الصوفى الجليل مصرى أصيل، وُلد فى الإسكندرية، وبها كانت نشأته وتربيته وتعليمه وتثقيفه على أيدى علمائها وفقهائها، وعلى قطب الصوفية فيها أبى العباس المرسى، شيخ الطرق الصوفية فى العالم العربى الإسلامى، وخليفة مؤسسها أبى الحسن الشاذلى تعلم وتفقه.

وتاريخ ابن عطاء الله السكندرى يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الحركة الفكرية بوجه عام، وتاريخ التصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين بوجه خاص، حيث انتشر فيهما التصوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساساً لفهم الدين الإسلامى فهماً روحياً، بعد أن ظلوا يناضلون التصوف وقتاً طويلا، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله عز وجل هى التفرغ لعبادته، والفناء فى حبه، والاتصال به عن طريق تصفية وتنقية القلب من كل أدران الشك، والسمو بالروح والنفس.

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية، فهو الذى وَضَّحَ فكرتها، وصاغها فى قالب علمى، كما أنه كان أول من ترجم لأستاذه أبى العباس المرسى، ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبى الحسن الشاذلى، فأسدى لهذه الطريقة ولقطبيها أجَلَّ الفوائد، كما أتاح لأتباعها معرفة الكثير عن هذه الطريقة وعن أقوال وتعاليم قطبيها الكبيرين.

لكن ابن عطاء الله السكندرى كان نموذجاً وحده بين المتصوفة. فقد كان يجمع بين العلمين: علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق، وكان - بشهادة المؤرخين مِّن العلماء والفقهاء - مبرزاً فى الاثنين معاً. فكان بهذه الصفة يستطيع أن يخاطب الجميع - صوفيين أو غير صوفيين غير أن هذا المزيج من علم الظاهر وعلم الباطن لم يأتِ هكذا فجأة، بل سبقته خطوات وخطوات..

إن من عجيب الأمور فى سيرة هذا العالم الصوفى الجليل أنه نبغ أول حياته فى علوم الظاهر، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طريقتهم وعلومهم، إلى أن أتيحت له الفرصة للتعرف على قطبها أبى العباس المرسى، ومنذ ذلك التاريخ آمن بطريقتهم وعلومهم.

لكن كيف كانت البداية فى دخول عالم التصوف؟

لقد بدأ ابن عطاء اله السكندرى مريدًا بعد أن حصل من العلم قدرًا وفيرًا، وبعد أن نبغ فى دراسة الفقه والشريعة والأدب. وعلوم الظاهر عامة، لهذا لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذ أبى العباس المرسى إليه، وبعد وفاته انتقلت إليه إمامة الطريقة الشاذلية، فجلس مجلس أستاذه يفسر القرآن تفسيرًا صوفياً، ويلقى المواعظ والدروس بين أتباع هذه الطريقة.

ومن الإسكندرية - التى وُلد فيها ونشأ وتعلم - انتقل إلى القاهرة. ليتخذ له عمودًا من أعمدة الأزهر الشريف. يلقى فيه دروس الصوفية، ويشرح آدابها وتعاليمها، فكان - كما تذكر الروايات والمصادر إلى جانب علمه الواسع فى الدين عامة والصوفية خاصة - أديبًا حلوَ الحديث، مشرق العبارة، مما كان لذلك أكبر الأثر فى نفوس سامعية، ونفوس قرائه بعد ذلك. ولهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلال.

وطبيعى أن يكون عالم هذا شأنه أن يسمع به السلطان المملوكى «حسام الدين لاجين»، فشاقه أن يراه ويستمع إليه ليتأكد من صدق ما يسمع عنه، فاستدعاه إلى مقر السلطانية.

وعن خبر هذه المقابلة يسجل ابن عطاء الله السكندرى جانباً منها، وهو الخاص بالمواعظ التى ألقاها فى حضرة هذا السلطان.

قال: «لما اجتمعت بالسلطان حسام الدين لاجين رحمه الله، كان على ما عرفت يريد أن يستمع إلىَّ، والحق أننى سعدت بذلك، فقد كانت فرصة نادرة أستطيع فيها توصيل ما أشعر به من آراء، حيث بدأت الحديث معه بقول: «يجب عليكم الشكر لله، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء، حتى انشرحت قلوب الرعايا بكم.. والرخاء أمر لا يستطيع الملوك والسلاطين تكسبه واستخلاصه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء...».

فقال السلطان لاجين موجهاً سؤاله إلى ابن عطاء الله: «وما الشكر الذى تراه؟».

قال ابن عطاء الله: «شكرٌ باللسان، وشكر بالأركان، وشكر بالجَنان».

قال السلطان: «وكيف يكون الشكر فى كل واحدة من هذه؟».

قال ابن عطاء الله: أما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله سبحان وتعالى، حيث قال: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

وأما شكر الأركان فمعناه طاعة الله عز وجل، حيث قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾.

ويبقى شكر الجَنان، وهو الاعتراف بأن الله وحده هو المُنْعِمُ، حيث قال تعالى: ﴿وما بكم مَنْ نعمة فمن الله﴾.

قال السلطان لاجين: «وما الذى يصير به الشاكر شاكرًا؟».

قال ابن عطاء الله: «إذا كان ذا علم فبالتوجيه والإرشاد والتبيين وإذا كان ذا غنى فبالبذل والعطاء والإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه وسلطان.. فَبِإِظْهَار العدل فيهم، ودفع الظلم عنهم، وعدم الإضرار بهم».

ويُسَرُّ السلطان لاجين غاية السرور لمقابلة هذا العالم الجليل وسماعه منه ما يصلح أمر نفسه حيال الخالق والرعية، ولعل سبب هذا السرور أسلوب ابن عطاء الله الواضح الصريح المعبر المعتمد على الحجة والمنطق، حتى نفذ إلى قلبه واستحوذ على إعجابه.

ولا يقل أسلوب ابن عطاء الله السكندرى فى الحكم والأقوال المأثورة.. عن أسلوبه فى الحديث والمناقشة، ولعله بلغ الذروة فى كتابه المعروف بالحِكم العطائية، إبداعاً وتركيزًا.. تحليلاً وشرحاً. وكان له فيها منهج خاص حيث كان لايعنى بالمعنى وحده، ولا بالأسلوب فحسب، بل كان يعنى أيضاً بالبيان، على اعتبار أن للبيان سحرًا خاصًا، لهذا كان يتخذ الألفاظ ذات الجرس الخاص، والنغم الموسيقى المؤثر، ومن هنا كان يحكم ابن عطاء الله سحر يؤثر فى نفوس سامعيه وقارئيه، كما يقرر الدكتور جمال الدين الشيال.

ولهذا ظل كتاب «الحكم» لابن عطاء الله مصدرًا علمياً يُقرأ قروناً طويلة فى الأزهر الشريف، وفى جامعة الزيتونة بتونس، وفى جامعة القرويين بفاس. فإلى جانب أنه يقدم جانباً من فكر هذا العالم الصوفى الجليل، فهو يقدم علماً من علوم الصوفية مكتوب بصيغة أدبية عالية المستوى. يقول فى إحْدَى حِكَمه عن الله عز وجل، والتى تبين منهجه الفريد، الذى يراعى التدرج فى تفصيلَ أَجَزاء هذه الحكمة أو الحقيقة على النحو التالى:

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى أظْهَرَ كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر بكل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر فى كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب إليك من كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود كل شئ؟

وهكذا نراه يراعى التدرج فى تقديم أجزاء الحقيقة المراد معرفتها.

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله السكندرى عن غيره من المتصوفة . . هى فى كونه لم يدخل طريق الصوفية إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة الإسلامية ـ وهى من علوم الظاهر ـ ولهذا كان يعتز بهذه المعرفة، برغم خشيته من أن تمنعه الشريعة من مواصلة طريق التصوف أو تمنعه من القربى من شيخه وأستاذه أبى العباس المرسى.

ولعله مر ـ بسبب ذلك ـ فى أول أمره بفترة قلقة مضطربة، حيث كانت نفسه تتأرجح بين الطريقين: علوم الظاهر، وعلوم الباطن. إلى أن أخذ بيده أستاذه المرسى أبو العباس وأنقذه من هذه الحيرة وذاك القلق، مشيراً عليه أن يمكن أن يجمع بين العلمين معاً، وأن يبرز فيهما أيضاً.

ولعل هذه النصيحة من شيخه وأستاذه أبى العباس المرسى كان من نتائجها أن تزودت معارفنا بكتابات عالم جليل يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن فى مزج فريد، بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر، بل نراهما يعاون كل منهما الآخر على بلوغ الحقيقة.

ولقد توفى ابن عطاء الله السكندرى بالقاهرة. سنة تسع وسبعمائة. ودفن فيها وليس فى مسقط رأسه الإسكندرية وضريحه معروف بجبانة الإمام الليث. وله بالإسكندرية مسجد منسوب إليه، لكن لم يضم رفاته الطاهرة.

* * *